التربية على التسامح فى مواجهة أعمال العنف
رؤى تطبيقية فى مناهج التاريخ الدراسية

ورقة عمل مقدمة من
الدكتور / صلاح عبد السميع عبد الرازق
أستاذ مساعد مناهج وطرق تدريس الدراسات الاجتماعية
كلية التربية / جامعة حلوان

ضمن فعاليات مؤتمر الجمعية التربوية للدراسات الاجتماعية
بعنوان
التسامح وقبول الآخر
٣/٤ أكتوبر ٢٠١٧ بدار الضيافة جامعة عين شمس

مفهوم التسامح

يسجل مفهوم التسامح حضوره في عمق التجربة الإنسانية، ويتبدى في صيغ تتنوع بتنوع المجتمعات الإنسانية في إطار الزمان والمكان والمراحل التاريخية. حيث عرفت الحضارات الإنسانية مفهوم التسامح وما يقابله من مفاهيم العنف والتعصب والعدوان، وقد تجلى هذا المفهوم في مختلف الآداب الفكرية للأديان السماوية السمحاء والأديان الوضعية.

ومع أهمية الحضور التاريخي لهذا المفهوم، يعلن عدد كبير من المفكرين عن صعوبة كبيرة جدا في تحديده، حيث يعلن "رتشارد مكيون" صراحة هذه الصعوبة بقوله: "إذا لم تسألني عن ماهية التسامح فأنا أعرف (هذه الماهية) وإذا سألتني فأنا لا أعرف" (١). هذا ويؤثر كثير من الفلاسفة عدم استخدام هذا المصطلح مثل الفيلسوف الفرنسي إميل بوترو. فتعريف التسامح أو على الأقل تفسيره إنما يستند إلى موقف الإنسان منه، إذ يمكن للتسامح أن يكون مجرد نية أو فكرة أو قد يتجسد في صورة ممارسة.

وعلى الرغم من الإشكالية الكبيرة التي يطرحها مفهوم التسامح فإن عدداً كبيراً من المفكرين يخوضون في هذه الإشكالية ويحاولون الغوص في أعماقها، وكثير منهم يرى اليوم بأن مفهوم التسامح يمثل جوهر مفهوم حقوق الإنسان ومنطلقه. وإذا كان التعصب يشكل مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية في كثير من بلدان العالم ، فإن التسامح هو المشهد الإنساني الذي تغيب فيه مظاهر العنف وتعلو فيه قيم السلام. وهذا يعني أننا أمام مفهومين لا يتعارضان فحسب وإنما يتنافيان على نحو الإطلاق: فالتسامح يعني غياب العنف والتعصب ، والعنف والتعصب يعنيان غياب التسامح وبالتالي غياب السلام.

ومن أجل تقديم صورة موضوعية أكثر عمقا لهذين المفهومين لا بد لنا من رصد الخلفيات الاصطلاحية واللغوية لهذين المفهومين الذين يشكلان مدخلنا المنهجي إلى رصد واقع التربية والتسامح في المجتمعات العربية المعاصرة.

يرى بعض المفكرين أن اللغة العربية لا تنطوي على مفهوم واضح للتسامح بالمعنى المعاصر للكلمة. جاء في لسان العرب: سمح، السماح، – السماحة المسامحة، والتَّسميح وتعني لغة الجود، وأسمح إذ جاد وأعطى بكرم وسخاء، وأسمح وتسامح وافقني على المطلوب، والمسامحة هي المساهلة(٢).

وجاء في مختار الصحاح سمح –السّماح والسّماحة الجود (سمَح) به يسمح بالفتح فيهما سمَاَحا سَماحة أي جاد. وسمح له أي أعطاه. وسمُح من باب ظَرُف صار سمحا بسكون الميم، وقوم سُمَحاء بوزن فُقهاء، وامرأة سَمِحة ونسوة سِمَاح. والمُسَامحة المُسَاهلة وتسامحوا تَسَاهَلوا(٣).

فالجذر اللغوي للفظة التسامح المستخدمة كما يتضح في لسان العرب ومختار الصحاح وغيرهما من القواميس العربية لا يحيل على المعاني الحديثة للتسامح، مادامت تعني مجرد الكرم والسخاء والجود والمساهلة. والتسامح في دلالته هذه لا ينطلق من مبدأ المساواة الذي يعتبر شرطاً في الدلالة الحديثة للتسامح.

جاء في قاموس "اللاروس" الفرنسي أن التسامح Tolérance يعني احترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآرائه السياسية والدينية. وجاء في قاموس العلوم الاجتماعية أن مفهوم Tolérance "يعني قبول آراء الآخرين وسلوكهم على مبدأ الاختلاف، وهو يتعارض مع مفهوم التسلط والقهر والعنف، ويعد هذا المفهوم أحد أهم سمات المجتمع الديمقراطي (٤).

ويعرّف قاموس "أنسيكلوبيديا بريتانيكا" الموسوعي التسامح أنه "السماح بحرية العقل أو الحكم على الآخرين". وهذا التعريف يكشف عن إحدى السمات الهامة للتسامح ونعني بها الحرية (٥).

ومن يستعرض تطورات مفهوم التسامح في التاريخ الإنساني يجد بأنه أخذ أشكالاً وصيغاً مختلفة ومتنوعة من حيث البساطة والتعقيد والامتداد والحضور. وسجلت هذه الأشكال والصيغ حضورها بوحي التنوع الحضاري والثقافي للمجتمعات الإنسانية. لقد وردت قيم التسامح والحقوق الإنسانية في الحضارات القديمة ولاسيما في شريعة حمورابي القديمة، كما وردت في الوصايا العشر وسجلت أجمل حضور إنساني لها في الأدب الإسلامي والعقيدة الإسلامية.

وليس الغرض التحديد العلمي لمفهوم التسامح أو أن نغوص في العمق التاريخي لتحولات هذا المفهوم وتطوراته، فبيت القصيد هو أن نبحث عن تحديد علمي معاصر لاستخدام هذا المفهوم وتوظيفاته في الحضارة الإنسانية المعاصرة، ولاسيما في إطار الثقافة الغربية التي تطرح بثقلها في تعيين دلالة هذا المفهوم المعاصر سياسيا واجتماعيا وتربويا. ومع ذلك كله لا بد لنا من إطلالة تاريخية سريعة حول هذا المفهوم تقتضيها ضرورة استيعاب دلالته المعاصرة بصورة موضوعية.

" لقد ترجمت لفظة Tolérance إلى العربية بـ"التسامح" ومع ذلك فإن مفهوم "تسامح" هو وليد حركة الإصلاح الديني الأوروبي، وقد نشأ عن تغير في الذهنية ناتج عن علاقة جديدة، هي علاقة الاعتراف المتبادل بين القوى التي استمرت تتصارع طوال القرن السادس عشر، أي خلال الحروب

الدينية الأوروبية. لقد حدث انشقاق داخل الدين الواحد، ثم وقع تجاوزه عن طريق الاعتراف بالحق في الاختلاف في الاعتقاد، ثم في حرية التفكير بوجه عام(٦).

" فحركة الإصلاح الديني في أوروبا ارتبطت أساسا بصراعات داخلية بين قوى اجتماعية معينة. وصحيح أن حركة الإصلاح هذه أوقدت نزاعات وحروبا بين دول أوروبا أيضا إلا أن النزاع كان أساسا بين قوى اجتماعية داخلية انعكس – على مستوى الرمز – في تباين تصورها لما هو مقدس (٧).

إذن لقد ولدت كلمة التسامح Tolérance في القرن السادس عشر، إبان الحروب والصراعات الدينية، التي عرفتها أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت(٨) حيث انتهى الكاثوليك إلى التسامح مع البروتستانت، وبشكل متبادل. ثم أصبح التسامح يمارس إزاء كل المعتقدات والديانات الأخرى. وفي القرن التاسع عشر انتشر هذا المفهوم ليشمل مجال الفكر وحرية التعبير وليتضمن جوانب اجتماعية وثقافية بالغة الغنى والتنوع. إن الحروب والصراعات الدينية الطويلة التي عاشتها أوروبا في ألمانيا وهولندا وإنكلترا وإسبانية، وفرنسا كانت في أصل هذا التحول الذي شهده مفهوم التسامح(٩).

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد من أن الكاثوليك كانوا خلال هذه الحقبة المظلمة من تاريخ أوروبا يرفضون التسامح ومختلف الاجتهادات الدينية التي تفضي إليه، وكانوا في سياق رفضهم يعتبرون التسامح بدعة يوظفها المفكرون الملحدون لتسميم عقول العامة والسيطرة على مقدرات وجودهم.

وقد ولدت مسألة التسامح كما يعتقد "ريمون بولان" من المنازعات الدينية وظلت خلال دهر من الزمان معنية بالمنازعات الدينية حصراً، وقد ظهر بالتدريج خلال قرنين من الخصومات والحروب والمناقشات، قرني "الحروب الدينية"(١٠).

يقوم المفهوم المعاصر للتسامح على مبادئ حقوق الإنسان العالمية، حيث ربطت وثيقة إعلان المبادئ العالمي الصادر في ١٦ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٩٥م بين التسامح وحقوق الإنسان والديمقراطية والسلم وبالتالي ارتقت بالتسامح إلى صورة قيمة قانونية تتطلب الحماية من قبل المجتمع الدولي(١٦).

حيث ورد في البند الأول من هذه الوثيقة إعلان المبادئ حول التسامح Déclaration de Principes sur la Tolérance الصادرة عن اليونسكو بصدد معنى التسامح أن مفهوم التسامح يتضمن العناصر التالية(١٧).

أولا: قبول تنوع واختلافات ثقافات عالمنا واحترام هذا التنوع.

ثانيا: التسامح موقف يقوم على الاعتراف بالحقوق العالمية للشخص الإنساني، والحريات الأساسية للآخر.

ثالثا: التسامح هو مفتاح حقوق الإنسان والتعددية السياسية والثقافية والديمقراطية

رابعا: إن تطبيق التسامح يعني ضرورة الاعتراف لكل واحد بحقه في حرية اختيار معتقداته، والقبول بأن يتمتع الآخر بالحق نفسه، كما يعني بأن لا أحد يفرض آرائه على الآخرين(١٨).

وواضح أن هذه المعاني الغنية والمتعددة الأبعاد تؤسس التصور الجديد للتسامح الذي تربطه علاقة ضرورية مع حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلم، وهذا يجعل مفهوم التسامح الجديد يتجاوز حدود الدين والفرد ليصبح حقا يمكن الدفاع عنه وحمايته في نسق حقوق الإنسان الأخرى.

فالتسامح على حد تعبير فدريكو مايور Mayor F. شرط ضروري للسلم ما بين الأفراد كما بين الشعوب وهو بمثابة "التوابل" اللازمة لكل ثقافة للسلام (١٩). وفي هذا السياق يعرف محمد جابر الأنصاري التسامح بأنه: تعايش المختلفين بسلام إذا توافر بينهما حد أدنى من التكافؤ والمساواة أو القَبول بالآخر. كما ولا يوجد تسامح بين أناس مختلفين في الفرص بينهم(٢٠).

فالتسامح هو قبول الآخر على علاّته وعلى اختلافه والاعتراف بحقوقه في الوجود والحرية والسعادة. إن الكواسر يتخطّف بعضها بعضا حينما تندر مبررات الوجود والكل منها آمن إذا توافر لها بعض مقتضياتها. فالإنسان ليس شريرا بطبعه وإنما هو شرير عندما تقتضي الحاجة إلى الشر، والعنف والغلبة والقهر أمور ترتبط بالشروط الاجتماعية للوجود الإنساني.

وهذا يعني أن الشروط التاريخية التي تحيط بالإنسان ولاسيما هذه التي تتصل بأوضاعه الاجتماعية وطبيعة الحياة الديمقراطية للمجتمع هي التي تحدد طبيعة التسامح في المجتمع . لقد بينت التجربة أن التعصب يظهر عند الفئات الاجتماعية المقهورة أو هذه التي توجد في أدنى السلم الاجتماعي للوجود . فالفئات المنكوبة والمحرومة هي هذه التي تدمر وتصب جام غضبها على بعض الفئات الاجتماعية الأخرى المنكوبة أيضا . وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكن القول بأن شروط العدالة الاجتماعية والديمقراطية بمختلف مستوياتها تكمن في أصل التعصب والحق والكراهية .

لقد بينت الدراسات أن مكونات البيئة الاجتماعية تساعد على تنامي وتائر التعصب والتصلب والعنف ومن هذه المكونات يشار إلى أهمية وسائل الاتصال ووسائل الإعلام ولا سيما الأدب السائد مثل القصة والمسرحيات والأساطير والكتب الدينية والأغاني والأمثال الشعبية(٢١).

وبالنتيجة فإن التسامح يعبر عن صيغة احترام مشاعر ومعتقدات الآخرين، أي معاملة الآخرين كبشر بصرف النظر عن ألوانهم وانتماءاتهم الدينية والعرقية والمذهبية أو خلفياتهم الاجتماعية، وعكس التسامح هو التعصب(٢٢).

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول إن عدم التسامح هو رفض الاعتراف بوجود أولئك الذين لا يشاركوننا معتقداتنا(٢٣). فاللاتسامح هو رغبة متسلطة في السيطرة الكاملة سواء أكان ذلك يهدف إلى المحافظة على هوية العشيرة، أو نقاء العنصر، أو من أجل السيطرة الإقليمية أو انتصار مذهب سياسي. فعدم التسامح هو رفض الاختلاف، وهو البحث بأيد مخضبة بالدماء عن التماثل، ورفض أي شكل من أشكال الاستقلال والتنوع. إنه رفض لتبادل الآراء لأن التبادل يبدد الكراهية، ويستبعد التعايش لأن التعايش يعني قبول الاختلاف(٢٤).

وفي هذا السياق يمكن القول بأن عدم التسامح يؤدي إلى موت الفكر وغياب الديمقراطية وإلغاء حقوق الإنسان، لأن غياب التسامح يؤدي إلى غياب القدرة على الاكتشاف، ويؤدي أيضا إلى قهر إمكانيات الاختراع، وإلى رفض للديمقراطية لأن الديمقراطية تنطوي ضمناً على الحرية والحوار وتداول السلطة.

وتعد العنصرية والعرقية والعدوان أشكالاً تتنافى مع مبدأ التسامح، فالنوع البشري يتألف من رجال ونساء، ولكن من الواضح أنهم جميعا آدميون، ومع ذلك فهناك كثيرون ينكرون التنوع الموجود في الطبيعة ويدعون أن هناك جنساً أسمى وهو بالطبع جنسهم.

فمفهوم التسامح هو نوع من التجلي الحقيقي لمفهوم حقوق الإنسان والديمقراطية. وإذا حاولنا أن نقدم تحديداً مانعاً لمفهوم التسامح نقول: بأن مفهوم التسامح يكافئ المفهوم الديمقراطي بأبعاده الاجتماعية لأن كلاهما الديموقراطية الاجتماعية والتسامح مفهومان يتضمنان قيم الإنسان وحقوقه التي تسعى إلى تحرير الإنسان من كافة أشكال العبودية والقهر والتسلط. يعني مفهوم التسامح أن المجتمع يتكون من أفراد يقبلون الآخرين على أنهم أنداد لهم، وأن الجميع سواء في نظر الجميع، وأن الانحياز والتمايز إنما هو بالعمل والإبداع، والسعي فيما ينفع الناس(٢٥).

يقول محمد أركون: "إن التسامح ليس فضيلة أساسية تمليها التعاليم الدينية والفلسفية العظيمة، ولكنه بالأحرى يمثل استجابة للمتطلبات الاجتماعية والسياسية في أوقات الاضطرابات الإيديولوجية الكبيرة"(٢٦). هذا ومن المألوف إطلاق اسم التسامح على الوضع المتناقض الماثل في قبول أن يعتقد بعض الناس وأن يعملوا على نحو يغاير اعتقاد الآخرين وعملهم، فالتسامح هو الاعتراف

المتبادل بأن الآخر مغاير، والقبول بشرعية وضرورة هذا التغاير، وهو اعتراف نظري وعلمي سواء بسواء.

ويعد التسامح من جهة أخرى الصورة التي يخضع فيها الفرد قناعاته الخاصة لضرورات الحياة المشتركة مع أناس يتأكد من أنهم على خطأ أساسي. إن التسامح بالمعنى النبيل لا يستند إلى أساس التساهل ولا الشهامة والضعف ولا الحساب النفعي أو الذرائعي، إنه الاعتراف بتعددية المواقف الفلسفية الإنسانية، والاعتراف بتنوع الآراء والقناعات والأفعال والأخلاق الناجمة عنها وبضرورة التوفيق بين تبايناتها الحاسمة وتنافراتها ضمن نظام مدني سياسي.

فالتسامح فن عيش مشترك مع التطلع دوماً إلى الحفاظ على مسافة صحيحة بين ضرورات الحياة العامة و ضرورات الحياة الخاصة(٢٧). إن مهمة التسامح هي تأمين التعايش المشترك في نسق التباين، ومن ثم، الحفاظ عليهما وحماية ما تنطويان عليه من قيم أساسية للوجود الإنساني(٢٨). إن التسامح لا يمنع ألوان المعارضة والاختلاف بل ولا الصراعات ولكنه يعترف بأن تأكيد الذات يقتضي الاعتراف بالآخر، وهذا يعني الاعتراف بالآخر من حيث مشابهته الأساسية ومخالفته الأساسية سواء بسواء. "فالاعتراف" بالآخرين وبالذات بنزاهة، ذاكم هو التسامح بالمعنى الأنبل، وبالتالي فإن الحفاظ على الفوارق والتعارض، وحتى على الخصومات، يشكل شرط التسامح(٢٩).

فمفهوم التسامح يرتبط ارتباطا عميقا بمفهوم السلام، فالسلام هو لازمة طبيعة لمفهوم التسامح فإذا كان السلام هو غياب الحرب ووجود الأمن فإن هذا يعني وجود التسامح كضرورة حيوية لمفهوم السلام. وهذا يعني في نهاية المطاف أن التسامح والسلام هما مفهوم واحد بوجهين متشابهين إلى حد كبير. والعنف في النهاية هو الصيغة اللغوية التي تقابل مفهوم التسامح فالعنف التعصبي أو العدواني هو نقيض التسامح، وذلك لأن التسامح هو التصور الذي يتنافى مع أي ممارسة للعنف والقسر والتسلط والعدوان.

يرى بعض المفكرين في سياق المقارنة بين العدوان والتسامح أن العدوان هو فعل الحيوان في الإنسان، وأن التسامح هو فعل الإنسان في الحيوان. وهذا يفترض أن التسامح فضيلة وأن ممارسة التسامح سلوك أخلاقي. وثمة بدائل معارضة السلوك العدواني مثل المناقشة والحوار، وإذا لم يحدث اتفاق بالتنازل المتبادل، فإن التسامح المتبادل في المجال السياسي هو شرط لممارسة ديمقراطية حقّة(٣٠).

التسامح الإسلامي

"التسامح" كلمة جميلة باتفاق اللغات والأعراق، والأمم كلها، ولذلك علينا أن لا نضع أيدينا على قلوبنا، وأن لا نخشى من طرح هذا الموضوع، بل يجب أن نلح عليه لنكسب أنفسنا والآخرين .

"التسامح " يعني الصفح عمن أخطأ عليك أو تجاوز حده، أو اختلف معك اختلافاً غير أخلاقي، فالمفهوم بهذا الاعتبار قيمة أخلاقية عظمى، وانتصار لروح الخير والأخلاق في النفس الإنسانية على روح الشر من الاستجابة لنزغات الشيطان.

"التسامح" هو أساس التعامل الذي يفترض أن يحكم علاقة الناس بعضهم ببعض، أما الإصرار على رفض التسامح فهو إصرار على إلحاق الأذى بالنفس قبل الآخرين، وهو إصرار على المعاناة الشخصية في مواجهة قلب يموج بذكريات مؤلمة عن الآخرين .

وكثيراً ما نسمع عن التسامح في التعامل مع الأديان الأخرى ونحن نجد أن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا من ظلم معاهداً أو انتقض أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) أخرجه أبو داود.

ومن المتواتر المشهور أن أصحاب الديانات من اليهودية والنصرانية والمجوس والصابئة عاشوا في ظل الحكم الإسلام قروناً طويلة محفوظةً كرامتهم، مرعيةً ذممهم وعهودهم، ولو شاءت الحكومات الإسلامية عبر العصور لصنعت معهم كما صنع (فرناندو) مع المسلمين في الأندلس حينما قام بطردهم وقتلهم خلال مجزرة بشعة سموها (محاكم التفتيش)، أو كما صنع لويس الرابع عشر الذي اعتبر البروتستانتية ديانة محرمة يعاقب عليها القانون أو يصفي أهلها، أو كما صنع البريطانيون الذي حرّموا على اليهود أن يدخلوا إلى أرض بريطانيا لأكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة، بينما المسلمون لم يستخدموا في تاريخهم هذه اللغة ولم يقوموا بمثل هذه التصفيات، مع أنهم كانوا أسياد الموقف عبر قرون طويلة تزيد على عشرة قرون، فأي قيمة عملية ونظرية أعظم من هذا التسامح الذي جسّده الإسلام، يقول الله تعالى: " قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ .."[الجاثية:١٤]، فالمؤمنون يغفرون للمشركين الذين لا يرجون أيام الله، يقول الله جل وتعالى: "فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"[الزخرف:٨٩]، وقال سبحانه: "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"[الحجر:٨٥]، وقال سبحانه وتعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ"[الأعراف:١٩٩]، وقال عن صفة عباد الرحمن المؤمنين: "...وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"[الفرقان:٦٣].

فهذه معاني قرآنية محكمة من قطعيات الدين تدل على أن التسامح لغة إسلامية أصيلة، ومعنىً أخلاقي شرعه الإسلام، وحث عليه قبل أن تولد فلسفة التسامح في الفكر الغربي الحديث.

ان على العلماء والدعاة وأصحاب الخطاب الإسلامي أن يقوموا بإشاعة هذا المبدأ الإسلامي العظيم: مبدأ "التسامح"، وتطبيعه بين الناس بشرائحهم وتياراتهم وصنوفهم وأشكالهم وحاكمهم ومحكومهم، في الخطب والدروس والمحاضرات والعلاقات؛ ليكونوا مضرب المثل في التسامح والتدرب على هذا الخلق النبيل.

إن من المهم أن نتحدث عن التسامح مع الذين نتفق معهم، وأيضاً مع أولئك الذين نختلف معهم أو ننتقدهم، فيجب أن نسامحهم.

أنت محتاج إلى المسامحة من نفسك ومن الآخرين، وكثير من الناس يتألم لأخطائه الماضية ويظل يحملها، فلا بد أن يكون متسامحاً مع نفسه، وقادراً على نسيان أخطائه الماضية، ومسامحة كل الناس، وجرّب أن تتصدق بعرضك عليهم؛ فسوف تجد أن قلبك يتسع ويمتلئ بالسرور، وسوف تتنفس الصعداء، ولا تأنف من قولهم، فقد لا يقابلونك بالمثل.

مصطلح التسامح أكثر شيوعاً من مصطلحات أخرى مثل "القبول" و "الإحترام" التي تدين بها جماعات مختلفة.

يعتبر التسامح كفضيلة أرضية وسطاً بين اللامبالاة الفكرية (المبالغة في التسامح) و بين ضيق الأفق (المبالغة في عدم التسامح).

شواهد من التاريخ على تحقيق التسامح

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم التسامح ويستعمله حتى مع المنافقين الذين يعرف أنهم كذلك، ومع أنهم يمثلون أعداء الداخل فلقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن أبي سلول مراراً، وزاره لما مرض، وصلى عليه لما مات، ونزل على قبره، وألبسه قميصه، وهذا الرجل هو الذي آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه يوم حادثة الإفك؛ فيقول عمر لرسول الله صلى

الله عليه وسلم: أتصلي عليه وهو الذي فعل وفعل؟ فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عمر، إني خُيّرت فاخترت قد قيل لي : "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ"، ولو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت) أخرجه البخاري، فنسخ جواز الصلاة عليهم بقوله تعالى: "وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ"[التوبة:٨٤]، لكن التسامح لم ينسخ أبداً.

ولما جاء رجل ورفع السيف على النبي صلى الله عليه وسلم وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ ثم سقط السيف من يده، ثم أخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (من يمنعك مني؟) أخذه إلى أصحابه وأخبرهم الخبر، فتعهد للنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحاربه، ولا يكون مع قوم يحاربونه، فالتسامح أحرجه وأخذ منه كل قلبه.

وفي الصحيحين يقول ابن مسعود: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

والإمام أحمد بن حنبل يقول أشهد أني قد عفوت عن المأمون، وما يضرني أن لا يعذّب أحد بسببي.

وإذا أردت أن تعرف قيمة العفو والصفح والتسامح تذكر الأخطاء التي وقعت منك تجاه الآخرين وحاجتك للعفو من الله عز وجل: "أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ"[النور:٢٢]، وقد نزلت هذه الآية في قصة الصديق وإيلائه ألا ينفق على مسطح بن أثاثة بعد وقوعه ومشاركته في حادثة الإفك.

التربية على التسامح

لقد أصبحت التربية أداة فاعلة اليوم في مواجهة مختلف مظاهر التسلط والقهر والاستبداد في المجتمع ، وأصبحت معنية بتأصيل القيم الديمقراطية في أعمق مناحي الحياة الإنسانية . وهي اليوم في اتجاه بناء ثقافة السلام وقيم التسامح ونبذ العنف تضمن للمجتمع أسس الانطلاق الحضاري والإنساني الممكن.

كتب جونز كوزكزاك Jauns Corczal وهو أحد الداعين إلى احترام عالم الطفل والطفولة : " نحن الراشدين نعرف كل شيء ونستطيع فعل ما كل شيء في الوقت الذي لا يعرف فيه الصغار إلا القليل، وهذا الأمر يشجعنا على التحكم بأفعالهم وتصرفاتهم وتفكيرهم وحتى بأحاسيسهم ، فنملي عليهم أوامرنا ونفرض عليهم طاعتها، ونكثر من توجيه النصائح وإعطاء الدروس لهم بغاية تربيتهم وجعلهم أفضل. وكل هذا يحتاج إلى وعي وإدراك منا بما نفعله كما يحتاج إلى فهم وإرادة، فهم في نهاية المطاف أطفالنا وكل ما نملك.

ويتابع كوركزاك حديثه قائلا: لكننا أدركنا اليوم أن هذا الأسلوب في التربية لم يكن الأفضل، وأدركنا أن السيطرة على عقول الأطفال لم تكن الطريقة المثلى للتربية على الحرية، فللطفل وباعتباره إنسانا الحق في احترامه واحترام عالمه وتفكيره.

فالأفكار التي يجب على التربية أن تنقلها للطفل وتشبعه بمضامينها هي تلك الأفكار التي أسست لإعلان العالمي لحقوق الإنسان والذي أقره مجلس الأمم في العاشر من كانون الأول عام ١٩٤٨– والذي نص بيانه على أن معرفة كل إنسان حقه أمر أساسي ولازم لكل أفراد الإنسانية، وهذا الشرط ضروري كي يسود السلام وتسود الحرية والعدالة في العالم". كما تضمن البيان على أن من واجب التربية أن تساهم في ازدهار الشخصية الإنسانية وتساهم في تربية الأفراد على احترام حقوق الإنسان والحريات بشكل عام".

وقد أشار فرنسوا فايلانت Francois Vailant إلى أن السلام وحقوق الإنسان وجهان لعملة واحدة، وتتبع أفكارهما من احترام الكرامة الإنسانية، وخلاصة قوله أن الدفاع عن حقوق الإنسان هو في نهاية المطاف احترام حقوق الإنسان.

كما اشار اعلان مبادئ بشأن التسامح ضمن ديباجته :

إذ تضع في اعتبارها أن ميثاق الأمم المتحدة ينص علي أننا "نحن شعوب الأمم المتحدة، وقد آلينا في أنفسنا أن ننقد الأجيال المقبلة من ويلات الحرب... وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره... وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معا في سلام وحسن جوار."

وتذكر بأن الميثاق التأسيسي لليونسكو المعتمد في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥ ينص في ديباجته علي أن "من المحتم أن يقوم السلم عي أساس من التضامن الفكري والمعنوي بين بني البشر."

كما تذكر بأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يؤكد أن "لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين" (المادة ١٨) و "حرية الرأي والتعبير" (المادة ١٩) و "أن التربية يجب أن تهدف إلي ... تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية" (المادة ٢٦).

وقد اشار الى أهمية التربية فى غرس قيم التسامح من خلال دور التعليم فى المادة رقم (٤) جيث أشار الى ذلك بالقول :

4-1إن التعليم هو أنجع الوسائل لمنع اللاتسامح، وأول خطوة في مجال التسامح، هي تعليم الناس الحقوق والحريات التي يتشاركون فيها وذلك لكي تحترم هذه الحقوق والحريات فضلا عن تعزيز عزمهم علي حماية حقوق وحريات الآخرين.

4-2وينبغي أن يعتبر التعليم في مجال التسامح ضرورة ملحة، ولذا يلزم التشجيع علي اعتماد أساليب منهجية وعقلانية لتعليم التسامح تتناول أسباب اللاتسامح الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية – أي الجذور الرئيسية للعنف والاستبعاد، وينبغي أن تسهم السياسات والبرامج التعليمية في تعزيز التفاهم والتضامن والتسامح بين الأفراد وكذلك بين المجموعات الاثنية والاجتماعية والثقافية والدينية واللغوية وفيما بين الأمم.

4-3إن التعليم في مجال التسامح يجب أن يستهدف مقاومة تأثير العوامل المؤدية إلي الخوف من الآخرين واستبعادهم، ومساعدة النشء علي تنمية قدراتهم علي استقلال الرأي والتفكير النقدي والتفكير الأخلاقي.

4-4إننا نتعهد بمساندة وتنفيذ برامج للبحوث الاجتماعية وللتعليم في مجال التسامح وحقوق الإنسان واللاعنف. ويعني ذلك ايلاء عناية خاصة لتحسين إعداد المعلمين، والمناهج الدراسية، ومضامين الكتب المدرسية والدروس وغيرها من المواد التعليمية بما فيها التكنولوجيات التعليمية الجديدة بغية تنشئة مواطنين يقظين مسؤولين ومنفتحين علي ثقافات الآخرين، يقدرون الحرية حق قدرها، ويحترمون كرامة الإنسان والفروق بين البشر، وقادرين علي درء النزاعات أو علي حلها بوسائل غير عنيفة.

كما جاء في البند ٢٩ من الإعلان العالمي لحقوق الطفل الذي أقره مجلس الأمم المتحدة ١٩٨٩\١١\٢٠ أن تربية الطفل يجب أن تركز جل اهتمامها على النقاط التالية:

– ترسيخ احترام الحريات واحترام حقوق الإنسان في ذهن الطفل.

– إعداد الطفل إعدادا يؤهله لتحمل مسؤوليات الحياة في مجتمع حرٍّ وفي جو يسوده الفهم والسلام والتسامح والمساواة والصداقة والأخوة بين الشعوب والجماعات العرقية والدينية والقومية.

ومما هو مسلم به اليوم أن الديمقراطية تسعى دائما إلى تطوير المجتمع وتحسينه ومده بقيم الحرية والتسامح والعدالة والسلام، لذلك على التربية أن تعد الأطفال ليصبحوا مواطنين مسئولين عن المجتمع ومحافظين على ترسيخ قيم ومبادئ الديمقراطية.والطريقة الأفضل لتحقيق هذا الهدف هي تنظيم المدارس وإعداد مناهجها استنادا إلى قيم الديمقراطية: "كتعليم احترام حقوق الإنسان في الوسط المدرسي" أي التوظيف الديمقراطي للمؤسسات المدرسية وهو شرط أساسي لنجاح للتربية على حقوق الإنسان، إذا نستطيع القول أن الهدف الجوهري والأساسي للديمقراطية هو بناء مجتمع متحرر من شتى أشكال العنف ".

أكد غاندي Ghandi بأن الديمقراطية تعني السلام عندما قال: "أن الديمقراطية الحقّة لا تتحقق إلا بالسلام والابتعاد عن العنف"، وأكد على أن الأطفال لن يستطيعوا إدارة مدارسهم ما لم يستطع الكبار إدارة حكوماتهم، ولم يقصد غاندي بهذا القول تسليم الأطفال إدارة مدارسهم، بل قصد أن أصوات التلاميذ ورغباتهم لن تؤثر في معلميهم ما لم تؤثر أصوات المواطنين في حكامهم، وتبقى مهمة المدرسة تعليم القيم الديمقراطية والتربية على السلام والاحترام.

التربية في مواجهة أيديولوجيا التطرف والتمييز

إن الأفكار والأيديولوجيات القائمة على التمييز والإقصاء (كالعنصرية والقومية والعرقية وكراهية الأجانب والليبرالية الاقتصادية القائمة على المنفعة والمصلحة) تهدد وجود النظام الديمقراطي برمته . ومن أجل الدفاع عن الديمقراطية ونظامها كان على التربية أن تناضل ضد هذه الأيديولوجيات التي تنتشر بسرعة لا مثيل لها داخل المجتمع وخارجه. (فهذه الأيديولوجيات التعصبية لا تعرف حدودا لها)، وهي لا تتوانى عن التأكيد بأن العنف أمر ضروري ومشروع في المجتمعات الإنسانية، والعنف الذي تروج له الأيديولوجيات التعصبية يؤدي إلى انهيار الحياة الاجتماعية وتصدع الأنظمة الديمقراطية . ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الدفاع عن الديمقراطية يكون في النضال ضد العنف وضد كل أشكال القهر والتعصب والتطرف.

وتأسيسا على ما تقدم فإنه يتوجب على المدرسة أن تطهر نفسها من جميع الأفكار المناهضة لقيم التسامح والعنف والتسلط والإكراه والتعصب والتطرف ، هذا إذا أرادت أن تمارس دورها الديمقراطي ، وعليها في الآن الواحد أن تمارس دورا تربويا في نشر قيم السلام والإخاء والمحبة ونبذ العنف ورفض التطرف ومهاجمة التعصب بكل أشكاله وتجلياته الإنسانية . هذا ويتوجب على المدرسة تربية

الأطفال على احترام الثقافات المتنوعة، وتقدير التنوع الثقافي وقبول الآخر على مبدأ الاختلاف . فالمدرسة تعتبر المكان الأفضل لإسقاط أفكار التميز ضد الآخرين، (أي أولئك الذين ينتمون إلى مجتمعات أخرى، لشعوب أخرى لأصول أخرى) وهي بالمقابل المكان الأكثر خطورة لتعليم الأطفال نماذج العداوة (أي تحريض ذكائهم وأحاسيسهم بمعنى تعليمهم الحرب).

وفي مواجهة الروح العدوانية ضد الآخر يجب على المدرسة تحرير الأطفال من النظرة الدونية إلى الآخر وقبول الآخر مهما تكن صيغته على مبدأ الاختلاف . فالمتطلب الرئيسي للتربية الحرة يتمثل في تربية الأطفال على التخلص من جميع أنواع العدوانية تجاه الآخرين المختلفين عنهم.

ومن أجل الكشف عن الغموض في حديثنا عن العنف، يبدو لنا من الأهمية توضيح الخطوات والمساعي التي اتخذت لإبعاد الشباب عن استعمال شتى أشكال العنف، وبإمكاننا أن نختصر هذه الجهود بالجملة التالية: "يمنع استخدام العنف". ومن جانب آخر فإن العديد من الكتاب يطالبون بالاعتماد على معطيات علم النفس لإيضاح أن منع العنف شيء سيء للغاية وحسب هؤلاء يتخذ العنف معان متعددة فيوجد عنف جيد و عنف سيء.

كتب العديد من الكتاب والمؤلفين نصوصا حول مسألة العنف في المدرسة، وهذه النصوص تدعو الشباب إلى الابتعاد عن العنف مثلا: أوقفوا العنف– العنف ضعف– لا للعنف– حياة العنف ليس بالحياة التي ننشدها– العنف ليس حلا لأي معضلة – لا ترد على العنف بالعنف– الاحترام أفضل من العنف– العنف ليس قدرنا – العنف ظلم لكل العالم– يسقط العنف– للعنف نهاية سيئة– استخدام العنف يعقد الحياة– استخدام العنف سيء ومضر للغاية– العنف ليس مشروعا ولا عادلا.

لكن العديد من الكتاب الذين يعالجون مسألة العنف يقولون بأن القليل من العنف لا يضر أبدا، بل ضروري ومهم في حياتنا ومن المستحيل إلغاء العنف نهائيا من حياتنا، فكثيرا ما نقرأ في بعض المقالات: الحياة عنيفة – العنف شيء أساسي في الحياة– العنف مكون أساسي للجنس البشري – العنف مفيد أحيانا – العنف مصدر الحياة – للعنف مراتب وعلى الحكم أن يميز بين حدود العنف الطبيعي والعنف المرضي– العنف رغبة في الوجود– العنف رسول الحياة والموت– يحتاج المرء إلى العنف ليستمر في حياته وإلا لن يملك قوة الحياة.

هذه المقالات تحمل تناقضا كبيرا فيما بينها، فمنها ما يدعو إلى استخدام العنف، ومنها ما يدعو إلى رفض العنف بشكل أساسي، وهذا التناقض يضع المربي في حيرة من أمره.

إذا مفهوم العنف الذي يستخدم هو مفهوم: غامض– معقد –غير منتهي– غير محدد– غير معروف ومبهم– وهذه الصفات المذكورة تنسحب على مفهوم اللاعنف أيضا. فالعنف يشتمل على

خلط بين العدوانية التي هي قوة للحياة، و بين العنف الذي يعبر عن قوة الموت، وحسب الفروض التي وضعناها في بحثنا هذا يتوجب علينا في كل مثال من الأمثلة السابقة أن نضع كلمة العدوانية مكان كلمة العنف ليعود كل شيء إلى أصله ويصبح طبيعيا، واستنادا على هذا يصبح باستطاعتنا اختيار الكلمات والمفاهيم والأفكار التي تجعل الشباب يفقدون ثقتهم بالعنف.

عندما تساءل فيليب ميريو Philippe Meirieu عن غاية المدرسة خرج بالنتيجة التالية: "إن غاية المدرسة هي بناء الإنسانية في الإنسان"، لكن هذه العبارة تحتاج إلى تحديد دقيق، فما المقصود بالإنسانية؟ وهنا يقول فيليب:لن أتحدث عن عمق جوهر الإنسانية، وكم هي ضرورية وأساسية في حياتنا، ولكني قصدت بقولي إن ما يعارض ويحارب العنف في الناس والأشياء سينتصر في نهاية الأمر. فالمدرسة قادرة على إحياء الإنسانية في الإنسان، وهذا يعني أنها تتحمل مسؤولية تحقيق التواصل بين الناس ضمن دائرة رفض العنف.

لا يوجد ما هو أفضل من رفض العنف ولا شيء يؤسس لهذه الإنسانية إلا رفض العنف نفسه، لكن مفهوم العنف معقد بالنسبة للإنسانية، لذلك ركزنا عند إجراء هذه الدراسة على تحديد مناهج ومبادئ اللاعنف والتي تشكل كيانا مؤسسا لإنسانية الإنسان ويحقق التكامل والتوافق. فرفض العنف يستمد معناه من رفضه للعنف، وهكذا يجب علينا أن نتعلم كيف نفكر عبر الشكل المشوه والغير واضح لأيديولوجيات العنف ، لنتعلم كيف نفهم التربية في مرآة فلسفة العنف .

ومن جانب آخر فإن معنى الطفل: "الصغير الذي لا يتكلم" ، وتربية الطفل تعني تعليمه الكلام، وليس الاقتصار على تعليمه للغته الأم فقط، بل تعليمه كيف يتحدث مع الآخرين، أي الكلام الذي هو مؤسس ومنشئ الأفكار، والأفكار التي نقصدها هنا هي الأفكار التي ترفض العنف.

وهذا يعني أن نُضمِّن برامج المدرسة الصراع القائم بين مفهومي العنف واللاعنف ، وهذا ليس بالشيء السهل كتضمين المناهج مادة الرياضيات أو اللغة الانكليزية أو مادة الجغرافيا، فتعليم اللاعنف ليس كتعليم الأحداث والوقائع، فهو تربية على سلوك، وطريقة للوجود. لكن العديد من المعلمين يؤكدون أن تعليم اللاعنف يفوق قدراتهم ومؤهلاتهم ولا يدخل ضمن اختصاصاتهم . لكن في الحقيقة العنف موجود في المدرسة، وعلى هؤلاء المدرسين أن يواجهوه بشكل مستمر في حياتهم اليومية . وهذا العنف يجبر المعلمين على التعليم والمتعلمين على التعلم.

دور المؤسسة المدرسية في التربية على التسامح

يترتب على المؤسسة التربوية، في سياق تأصيل قيم التسامح وحقوق الإنسان، أن تعلن الحرب على كل المفاهيم والقيم العرقية والتعصبية التي تسود في الذهنية العربية. ويمكنها من أجل ذلك أن تضع

في مناهجها مقررات حول التسامح والسلام وحقوق الإنسان وأهمية ذلك في الحياة العربية المعاصرة والمستقبلية للإنسان المعاصر (٣٣).

إن أي جهد لتعليم الديمقراطية وحقوق الإنسان لا بد وان ينطلق من صورة واضحة متكاملة عما يجب تعليمه وتعلمه. وكذلك الحال بالنسبة للذين يصممون برامج التعليم ويدرسونه، حيث يجب أن يتمتعوا بفهم جيد لقيم التسامح وحقوق الإنسان ومفاهيم الديمقراطية(٣٤).

في البداية، ومن أجل بناء تربية تسامحية تعزز حقوق الإنسان وكرامته، تكون الخطوة الأولى في تحرير التربية بمناهجها وممارساتها من مختلف أشكال التعصب والتصلب الذي تعانيه، ومن ثم تأتي الخطوة الثانية التي تتمثل في تبني مناهج تربوية جديدة قادرة على تعزيز قيم التسامح والحب وحقوق الإنسان بين الأجيال وأفراد المجتمع بصورة عامة.

ففي مواجهة قضايا التمييز العنصري، واستبداد الأقوياء، واضطهاد وإبادة الأقليات العرقية، يمكن للتربية أن تؤدي أدوارا في غاية الأهمية والموضوعية، ودورها هنا يكون في تعزيز: حقوق الإنسان، وحقوق الطفل، وحقوق الأقليات، والإيمان بالعدالة الاجتماعية. وهذا يعني التأكيد على مبدأ التربية الأخلاقية التسامحية في مقدمة أولويات التربية المدرسية (٣٥).

ولا يستقيم الحديث عن التربية على قيم التسامح وحقوق الإنسان إلا في إطار مشروع تربوي متكامل، يمكنه أن يكون بمثابة الإطار المرجعي العام فيضمن وضوح الرؤية، واتساق المقاصد، وتماسك الوسائل. ولا بد للتربية المدرسية الحقّة في مجال حقوق الإنسان من أن تعمل على تحقيق الأهداف التالية:

– تصفية كل أشكال التفرقة والتميز القائمة على أساس الجنس أو الأصل الاجتماعي، أو اللون أو الدين. –تأصيل قيم التسامح والسلام البنية الذاتية لشخصية الإنسان العربي. –تعزيز وعي الفرد بحقوق الإنسان وواجباته وفقا لمقتضيات الحياة البشرية في مجتمع مدني مؤسساتي يقوم على التلازم الأساسي بين الحرية والمسؤولية.

و يمكن للتربية على حقوق الإنسان أن تشمل المجالات المعرفية والسلوكية. فعلى المستوى المعرفي تعنى هذه التربية بمساعدة المتعلم على إدراك المفاهيم الأساسية لحقوق الإنسان ومبادئ التسامح، وتوسيع آفاق معارفه لمبادئ الحق والجمال الحياة الاجتماعية والمدنية وقواعد التنظيم الإداري والسياسي (القانون العام) وبالمؤسسات العالمية، والمواثيق الدولية (القانون الدولي) (٣٦).

وفي مستوى المواقف، ليس الهدف من التربية على التسامح وحقوق الإنسان مجرد تلقين الطالب جملة من المعارف والمعطيات المتصلة بالوقائع، التي يتعين على التلميذ حفظها واسترجاعها، ولا في

إكسابه جملة من المهارات المنهجية، بل إن جوهر كل عملية تربوية يكمن في إحداث التحول في المواقف الأولية والسلوكات العفوية والارتقاء بها إلى مواقف متطورة وسلوكيات مستجيبة، وإلى جملة من القيم والاختيارات، التي يقودها العقل بعيدا عن كل أشكال الامتثالية.

ولا بد في هذا السياق من وضع منطلقات أساسية تكون بمثابة مبادئ وقضايا تهم حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وتدخل ضمن مجموعة من المقررات والمناهج الدراسية، ومن بين هذه المنطلقات(٣٧):

حرية إبداء الرأي واحترام رأي الآخر.

الدعوة إلى السلام العالمي، ونبذ الحروب.

التعريف بثقافات الشعوب والدعوة إلى تقاربها وتعاونها

ترسيخ مبادئ التفكير الحر غير المنمط عن طريق النقد الموضوعي.

وإذا أردنا أن نواكب الروح الحقيقية لحقوق الإنسان فإنه يترتب علينا الاعتراف بخصوصيات طرق تدريس المسائل المتعلقة بهذه الحقوق. ولعل أول هذه الخصوصيات سيادة النماذج التربوية التي تتعارض مع روح التربية على حقوق الإنسان، خاصة ذلك النموذج القائم على نقل المعارف أو التلقين الجامد Model transmissf الذي يجعل المعلم محور العملية التربوية فكيف يمكن للتلميذ أن يتبطن قيم الحوار والتسامح، ويصدر عنها خارج المدرسة، إذ هو منع من ممارستها داخل الفصل؟ كيف له أن يفكر بنفسه إذا ما فكر غيره مكانه.

وفي المحصلة يمكن القول إن بناء الإنسان الحر المتسامح الذي يرفض التعصب بطبيعته يشكل الغاية التربوية الكبرى وتلك هي الحقيقة التي يؤكدها أغلب المفكرين وعمالقتهم. ومن أجل بناء هذا الإنسان الحر المتسامح والمؤمن بحقوق الإنسان، يترتب على التربية أن تحقق عددا من الأهداف، التي تنطلق من مبدأ وحدة الشخصية الإنسانية بوصفها الأساس الثابت لبناء الإنسان الحر، والسبيل إلى تحرير الإنسان.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أهمية المناهج وطرق التدريس في تعزيز حقوق الإنسان والتسامح، فطرق التعليم السائدة غالبا ما تؤدي إلى ترسيخ واقع القهر والتعصب، وذلك عن طريق تزييف الوعي الثقافي بصفة عامة، والسياسي بصفة خاصة، وذلك من خلال المناهج التربوية والتعليمية المقدمة للتلاميذ. وإذا جاوزنا المفهوم التقليدي للمنهج وسلمنا بأن المنهج مجموعة الخبرات التي تستطيع المدرسة توفيرها وتنظيمها وتوجيهها والإشراف عليها، والتأثير بها في شخصية المواطن، بحيث تنمو نموا متكاملا تكامل الحياة في المجتمع المعاصر، سواء أكانت هذه الخبرات

في داخل المدرسة أو خارجها، فالمنهج بهذا المعنى يجعل المدرسة إما أداة لبناء الإنسان الحر، أو وسيلة لتحقيق أيديولوجية الأنظمة المستبدة، حيث أوضحت دراسات عديدة الدور الذي يمكن أن تسهم به المناهج في تزييف الوعي الاجتماعي والسياسي(٣٨).

وإذا كان من الضروري أن يتضمن منهج التعليم للطلاب على اختلاف مستوياتهم ومراحلهم التعليمية قاعدة معرفية عريضة، تمكن الطالب من الوعي بطبيعة القهر، والتعرف على مظاهر الاستبداد السياسي، وآثاره السلبية والمدمرة على الفرد والمجتمع، كل هذا لا يكون، إلا نتيجة منهج دراسي خاص يتناول العملية التعليمية بحذافيرها حتى الحياة اليومية في المدرسة، وما فيها من مجالات مشاركة التلاميذ مشاركة تبني فيهم عادات الأخذ والعطاء في سماحة، والحوار في تأدب، والقيادة في غير تعال، والانقياد في غير غفلة، واحترام رأي الأغلبية دون التنازل عن حرية التصحيح والمراجعة، وحرية الفكر من غير سعي وراء كسب القضية للرأي ولو بالخداع والزيف، ونقد النفس، ونقد الغير من غير علو في هذا، ولا تواضع في ذلك، وتمسك بالحقوق من غير طمع، والقيام بالواجبات في غير ترخص(٣٩).

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨

مواقف من تسامح الرسول :

من مواقف السماحة والعفو في حياته صلى الله عليه وسلم حينما همَّ أعرابي بقتله حين رآه نائمًا تحت ظل شجرة، وقد علَّق سيفه عليها، فعن جابر رضي الله عنه قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع (إحدى غزوات الرسول)، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلَّق بها سيفه، فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلَّق بالشجرة فأخذه، فقال الأعرابي: تخافني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، فقال الأعرابي: فمَن يمنعك مني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، فسقط السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال: مَن يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن خير آخذ. فقال صلى الله عليه وسلم السيف: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: لا، ولكني أُعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس" [صححه ابن حبان].

غلظة الأعرابي وتسامح الرسول:

عن أنس بن مالك قال: (كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني (عباءة) غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه جبذة . [أي جذبه جذبة قوية] حتى رأيت صفح عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته (تركت الجذبة علامة على عنق الرسول)، فقال: يا محمد أعطني من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

تسامحه مع جاره اليهودي:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوره جار يهودي، وكان اليهودي يحاول أن يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يستطيع خوفًا من بطش أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فما كان أمامه إلا الليل والناس جميعاً نيام؛ حيث كان يأخذ الشوك والقاذورات ويرمي بها عند بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ولما يستيقظ رسولنا الكريم فيجد هذه القاذورات كان يضحك صلى الله عليه وسلم، ويعرف أن الفاعل جاره اليهودي، فكان نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يزيح القاذورات عن منزله ويعامله برحمة ورفق، ولا يقابل إساءته بالإساءة، ولم يتوقَّف اليهودي عن عادته حتى جاءته حمى خبيثة، فظلَّ ملازمًا الفراش يعتصر ألمًا من الحمى حتى كادت توشك بخلاصه.

وبينما كان اليهودي بداره سمع صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يضرب الباب يستأذن في الدخول، فأذِن له اليهودي فدخل صلوات الله عليه وسلم على جاره اليهودي وتمنّى له الشفاء، فسأل

اليهودي الرسول صلى الله عليه وسلم وما أدراك يا محمد أني مريض؟؟ فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: عادتك التي انقطعت (يقصد نبينا الكريم القاذورات التي يرميها اليهودي أمام بابه)، فبكى اليهودي بكاءً حارًا من طيب أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتسامحه، فنطق الشهادتين ودخل في دين الإسلام.

الكتابة على الرمل:

كان هناك صديقان يمشيان في الصحراء وفي أثناء سيرهما اختصما، فصفع أحدهما الآخر فتألم الصديق لصفعة صديقه، ولكن لم يتكلم!! بل كتب على الرمل: "اليوم أعز أصدقائي صفعني على وجهي"، وواصلا المسير، فوجدا واحة، فقررا أن يستحمَّا في الماء، وإذا بالمصفوع على وجهه يغرق في أثناء السباحة، فينقذه صديقه الذي صفعه، ولما أفاق من الغرق نحت على الحجر: "اليوم أعز أصدقائي أنقذ حياتي"، فسأله صديقه: عندما صفعتك كتبت على الرمل، ولكن عندما أنقذتك من الغرق كتبت على الحجر فلماذا؟ فابتسم صديقه، وأجاب: "عندما يجرحنا الأحباب علينا أن نكتب ما حدث على الرمل لتمسحها رياح التسامح والغفران، ولكن عندما يعمل الحبيب شيئًا رائعًا، علينا أن ننحته على الصخر حتى يبقى في ذاكرة القلب، حيث لا تمحوه الرياح".

إن التسامح شيء يتعلمة الإنسان بسهولة، لكن تطبيقه صعب، يجب على الإنسان أن يمر بمرحلة التسامح، وهي تشمل التسامح المنطقي، والتسامح العاطفي؛ بمعنى أن الإنسان كلما فكر في شخص كان قد غضب منه يتمنى له الخير، فالأسهل والأفضل أن تسامح، وسيعطيك الله سبحانه وتعالى الأجر والثواب، فنحن ليس لدينا الوقت في هذه الدنيا للحزن والضيق والغضب من شخص معين، أو موقف محدد، فإذا غضبت من شخص فلا تهدر طاقتك في الغضب والضيق والحزن، وإنما الأفضل أن تسامح، فأرسل لمن يضايقك باقة جميلة من الطاقة، فطاقة الإنسان لو وصلت ببلد لأضاءته لمدة أسبوع كامل.

المحبه والتسامح

اجتمع الصحابة في مجلس ولم يكن معهم الرسول عليه الصلاة والسلام ..

فجلس خالد بن الوليد .. وجلس ابن عوف .. وجلس بلال وجلس ابو ذر ..

وكان ابو ذر فيه حدة وحرارة فتكلم الناس في موضوع ما ..

فتكلم أبو ذر بكلمة إقتراح: أنا أقترح في الجيش أن يفعل به كذا وكذا .

قال بلال : لا .. هذا الإقتراح خطأ .
فقال أبو ذر : حتى أنت يابن السوداء تخطئني .!!!
فقام بلال مدهوشا غضبانا أسفا ..
وقال : والله لأرفعنك لرسول الله عليه الصلاة والسلام ..
وأندفع ماضياً إلى رسول الله .
وصل للرسول عليه الصلاة والسلام ..
وقال : يارسول الله .. أما سمعت أبا ذر ماذا يقول في ؟
قال عليه الصلاة والسلام : ماذا يقول فيك ؟؟
قال : يقول كذا وكذا ...
فتغير وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ..
وأتى أبو ذر وقد سمع الخبر .. فاندفع مسرعا إلى المسجد ..
فقال : يارسول الله .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
قال عليه الصلاة والسلام : يا أبا ذر أعيرته بأمه .. إنك امرؤ فيك جاهلية .!!
فبكى أبو ذر رضي الله عنه.. وأتى الرسول عليه الصلاة والسلام وجلس ..
وقال يارسول الله استغفر لي .. سل الله لي المغفرة !
ثم خرج باكيا من المسجد ..
وأقبل بلال ماشيا ..فطرح أبو ذر رأسه في طريق بلال ووضع خده على التراب ..
وقال : والله يابلال لا ارفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك ..
أنت الكريم وأنا المهان ..!!
فأخذ بلال يبكي .. وأقترب وقبل ذلك الخد ثم قاما وتعانقا وتباكيا .
****

هذه هي حياتهم يوم تعاملوا بالإسلام رضي الله عنهم أجمعين.
ان بعضنا يسيء للبعض في اليوم عشرات المرات ..
فلا يقول : عفواً ويعتذر !
إن بعضنا يجرح بعضا جرحا عظيما ..
في عقيدته ومبادئه وأغلى شيء في حياته ..
فلا يقول .. سامحني !

إن البعض قد يتعدى بيده على زميله .. وأخيه ..
ويخجل من كلمة : آسف .!!
الإسلام دين التقوى لم يفرق بين لون أو حسب أو نسب ..
فلماذا يعجز أحدنا عن الإعتذار لأخيه .. بهدية صغيرة .. أو كلمة طيبة .. أو بسمة حانية

نخشى أن يقال لقد ذهب العفو من الناس

حدث في عهد عمر بن الخطاب أن جاء ثلاثة أشخاص ممسكين بشاب وقالوا
"يا أمير المؤمنين نريد منك أن تقتص لنا من هذا الرجل ، فقد قتل والدنا " .

قال عمر بن الخطاب " لماذا قتلته ؟ " .

قال الرجل " إني راعى ابل وأعز جمالي أكل شجره من أرض أبوهم فضربه أبوهم بحجر فمات فامسكت نفس الحجر وضربته به فمات !! " .

قال عمر بن الخطاب " إذن سأقيم عليك الحد " .

قال الرجل "أمهلني ثلاثة أيام فقد مات أبي وترك لي كنزاً أنا وأخي الصغير فإذا قتلتني ضاع الكنز وضاع أخي من بعدي" .

فقال عمر بن الخطاب " ومن يضمنك فنظر الرجل في وجوه الناس فقال هذا الرجل فقال عمر بن الخطاب يا أبا ذر هل تضمن هذا الرجل ؟ " .

فقال أبو ذر " نعم يا أمير المؤمنين " .

فقال عمر بن الخطاب " إنك لا تعرفه وأن هرب أقمت عليك الحد " .

فقال أبو ذر " أنا أضمنه يا أمير المؤمنين " .

ورحل الرجل .. ومر اليوم الأول .. والثاني .. والثالث .. وكل الناس كانت قلقله على أبو ذر .. حتى لا يقام عليه الحد .. وقبل صلاة المغرب بقليل .. جاء الرجل وهو يلهث .. وقد أشتد عليه التعب والإرهاق .. ووقف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ..

قال الرجل " لقد سلمت الكنز وأخي لأخواله وأنا تحت يدك لتقيم علي الحد " .

فاستغرب عمر بن الخطاب وقال " ما الذي أرجعك ؟ كان ممكن أن تهرب " .

فقال الرجل " خشيت أن يقال لقد ذهب الوفاء بالعهد من الناس " .

فسأل عمر بن الخطاب " أبو ذر لماذا ضمنته ؟ " .

فقال أبو ذر " خشيت أن يقال لقد ذهب الخير من الناس " .

فتأثر أولاد القتيل فقالوا " لقد عفونا عنه " .

فقال عمر بن الخطاب " لماذا ؟ " .

فقالوا " نخشى أن يقال لقد ذهب العفو من الناس " .

المراجع :

١ – أندريه مرسييه برن، التسامح كأمر فلسفي، ضمن مراد وهبة، التسامح الثقافي، مرجع سابق، ص ٤٣–٥٩ ص٥٠.
٢ – جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مج(٢)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥–١٩٥٦م، ص٤٩٠.

٣ – الشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الفكر، بيروت، ص٣١٢.

٤ . Madlein Crawitz: Lexique des sciences sociales, Dalloz, Paris. ١٩٨٣. P. ٣٥٨.

٥ مراد وهبة، التسامح والدوجماطيقية، ضمن: أبحاث المؤتمر الإقليمي الأول للمجموعة الأوروبية العربية للبحوث الاجتماعية المنعقد في ٢١–٢٤ نوفمبر عام ١٩٨١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤٣–٥٩، ص١٥٥.

٦ – علي أومليل، التسامح هل هو مفهوم محايد، ضمن مراد وهبة، التسامح الثقافي مرجع سابق، ص١٠٣–١٠٤.

٧ – علي أومليل، التسامح: هل هو مفهوم محايد، مرجع سابق، ص١٠٥.

٨– إبراهيم إعراب، التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي، المستقبل العربي، تشرين الأول (أكتوبر)، عدد ٢٢٤، ١٩٩٧م، ص٤٨ – ٧، ص٤٩.

٩ – إبراهيم إعراب، التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي مرجع سابق، ص٥٠.

١٠– ريمون بولان، الحرية في عصرنا، ترجمة وتقديم عادل العوا، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٣م، ص١٦١.

– ١٦ مقتطفات من إعلان المبادئ المتعلقة بالتسامح الذي أعلنه ووقعه المؤتمر العام لليونيسكو في ١٦ نوفمبر ١٩٩٥م، رسالة اليونيسكو، آذار/ مارس، ١٩٩٦م، ص٣٤.

–١٧ مقتطفات من إعلان المبادئ المتعلقة بالتسامح رسالة اليونيسكو، مرجع سابق، ص٣٤.

–١٨ مقتطفات من إعلان المبادئ المتعلقة بالتسامح مرجع سابق، رسالة اليونيسكو، ص٣٤.

–١٩ إبراهيم إعراب، التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي، مرجع سابق، ص٤٩.

٢٠ – محمد جابر الأنصاري، حمد جابر الأنصاري: مفهوم التسامح في الثقافة الإسلامية وانعكاساته على تربية الأطفال، ضمن: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الطفولة في مجتمع عربي متغير، الكتاب السنوي العاشر، الكويت، ١٩٩٤– ١٩٩٥م، ص ٤١–٧٥، ص٧١.

٢١ – سعد عبد الرحمن، عملية التطبيع الاجتماعي وأزمات التعصب والتحامل في مجتمعاتنا المعاصرة، عالم الفكر، عدد١، أبريل/مايو/يونيو، ١٩٧٠م، ص ٨٢–١٣٢.

٢٢- قاسم الصراف، غياب المفاهيم التربوية في البيئة المدرسية، ضمن، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكتاب السنوي العاشر، الكويت، ١٩٩٤-١٩٩٥م. ص١١٣-١٥١، ص١١٦.
٢٣- ادجار بيزاني، في مواجهة عدم التسامح، رسالة اليونسكو، يونيو ١٩٩٢م، (صص٣٤ - ٣٦)، ص٣٤.
٢٤- ادجار بيزاني، في مواجهة عدم التسامح، مرجع سابق، ص٣٤.
٢٥- الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، تربية التسامح وضرورات التكافل الاجتماعي، تحرير: حسن علي الابراهيم، الكتاب السنوي العاشر، الكويت، ١٩٩٤- ١٩٩٥م.
٢٦- محمد أركون، الإسلام واختلاف النماذج، رسالة اليونسكو، يونيو ١٩٩٢م، ص٣٠ - ٣٤، ص٣٢.
٢٧ - ريمون بولان، الحرية في عصرنا، مرجع السابق،، ص١٥١.
٢٨- المرجع السابق، ص١٥٢.
٢٩ - ريمون بولان، الحرية في عصرنا، المرجع السابق، ص١٥٥.
٣٠ - أندريه مارسييه برن، التسامح كأمر فلسفي، ضمن مراد وهبة: التسامح الثقافي: أبحاث المؤتمر الإقليمي الأول للمجموعة الأوروبية العربية للبحوث الاجتماعية المنعقد في ٢١-٢٤ نوفمبر عام ١٩٨١م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، صص ٤٣-٥٩،، ص٥١.
٣٣- أحمد الحطاب، الصفات التي يجب أن تتسم بها التربية للاستجابة لمتطلبات القرن الواحد والعشرين مكتب اليونيسكو الإقليمي، العدد ٣٥، يونيو، حزيران، ١٩٨٩م. ص٢٩.
٣٤- أحمد خليفة بوشرباك، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في إطار مناهج التعليم في دولة قطر، التربية الجديدة، عدد٥٨، ١٩٩٥م. ص١٣٤
٣٥- أحمد الحطاب، الصفات التي يجب أن تتسم بها التربية للاستجابة لمتطلبات القرن الواحد والعشرين، مرجع سابق، ص٣٨.
٣٦ - عمران البخاري، مران البخاري: التربية على حقوق الإنسان والديمقراطية في التعليم الثانوي، التربية الجديدة، عدد ١٩٩٥،٥٨م، ص١٠٨.
٣٧ - حسن علي عبد اللطيف، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في مناهج التعليم الثانوي في دولة البحرين، التربية الجديدة، عدد٥٨، ١٩٩٥م، ص٨٧-١٠٣، ص٩٧.
٣٨- أبو الفتوح رضوان، منهج المدرسة الابتدائية، دار القلم، الكويت، ١٩٧٣م، ص٤٥.
٣٩- أبو الفتوح رضوان، منهج المدرسة الابتدائية، المرجع السابق ، ص٤٤.

٤٠. http://islam.ahram.org.eg/NewsQ/2415.aspx
٤١. http://forum.sedty.com/t474355.html